بحوث في اللغة العربية وآدابها: نصف سنوية لقسم اللغة العربية وآدابها بجامعة إصفهان
العدد ٤ (ربيع وصيف ١٤٣٢هـ. ق/ ١٣٩٠ هـ. ش)، ص ٤٣ـ٥٠

أسئلة الإبداع عند البَرَدّوني[١]

حسين جمعة*

الملخص:

يدور البحث حول تعريف الأديب اليمني عبدالله بن صالح الملقب بالبردّوني، وهو كاتب و شاعر يمني كبير وفي نفس الوقت ناقد و مورخ. والبردّوني قضى سنوات دراسته الأولى في الكتاتيب، وفيما بعد انتقل إلى الجامع الكبير في صنعاء. ثم انتسب إلى دار العلوم، وتخرّج منها مدرّساً للأدب. كان الشاعر ذا نزعة رومانسية في شعره بنوعيه العمودي والتفعيلة، وهو من مؤسسي اتحاد الأدباء والكتّاب اليمنيين، كما عُيّن رئيساً لها فيما بعد. ونال عدة جوائز منها: جائزة اليونسكو. وله اثنا عشر ديواناً وثماني دراسات.

إن صورة الحب الوطني الرومانسي يشرق في أشعار البردّوني، وفي هذا المجال لم يتوان من النقد اللاذع لسلاطين اليمن ولا سيما أحمد حميد الدين، كما تطرّق إلى قضايا تهمّ العالم العربي؛ مثل القضية الفلسطينية والعروبة والوحدة العربية.

المفردات الرئيسية:

المفردات الرئيسية: البردّوني، الشعراء اليمنيون، الحب الوطني، الشعر السياسي، القضية الفلسطينية، العروبة، الوحدة العربية

المقدمة: خلود البردّوني

يأتي عام ويرحل آخر، ومن ثم ترى قوافل الزمن وقد برعت في نسج أحداثها؛ وبقيت الأجيال الشاهدَ الأبدي عليها، أيّاً كانت اتجاهاتها وصدماتها ومتغيراتها وتأثيراتها... ويظل المبدعون والمفكرون والنّقّاد أكثر توهّجاً وفاعلية في مسيرة الزمن والحياة، وإن أسلموا أرواحهم لبارئهم. لقد مضوا في رحلة الغياب الأبدية، بيد أنهم ما يزالون يمثّلون الجوهر الحيوي في الثقافة الإنسانية والذاكرة البشرية. فإذا انقطعت أجسادهم من الدنيا، فهم خالدون بما تركوه من أشرعة الإبداع والنقد والفكر والفلسفة التي يتلقّفها العقل البشري، بوصفها إنجازاً بشرياً يخترق ذواتَهم لخدمتها، وقد غدت إبداعاتهم إشعاعاً يُنير الطريق ويثري المعرفة والحياة.

إنها تستعصي على النسيان أو الموت، كما ذهب إليه رولان بارت في نظريته (موت المؤلف). ولعل هذا يؤكد أن الإبداع الحقيقي لم يُخْلق لزمان محدد، ولا يمكن أن يكون صورة له فحسب، بل هو صورة تؤكد خصوصيتها اللغوية والثقافية في الوقت الذي لا تتناقض فيه مع ماهية الإبداع في كل زمان ومكان؛ إذ تستوعب أبنيتَه المتطورة والمستمرة.

---

[١]ـ تاريخ التسلم: ١٣٩٠/٧/١٢ هـ. ش (٢٠١١/١٠/٤م)؛ تاريخ القبول: ١٣٩٠/٨/٢٩ هـ. ش (٢٠١١/١١/٢٠م).

* أستاذ اللغة والأدب العربي في جامعة دمشق.

Archive of SID

www.SID.ir

وكل من يتناول فرضية تبدّل الأزمان وخلود المبدعين وتقنيات ما أبدعوه، لا يمكنه أن ينسى الكاتب المبدع والشاعر اليمني والناقد والمؤرخ عبد الله بن صالح بن عبد الله بن حسن الذي اشتُهر بلقب «البَرَدُّوني»، نسبة إلى بلدته «البَرَدُّون»، التي ولد فيها عام ١٩٢٩، وتوفي في ١٩٩٩/٨/٣٠م.

وكان قد أصيب بمرض الجدريّ في عام ١٩٣٣م، فأدّى إلى فَقْد بصره، ولم يكد يتجاوز الخامسةَ من عمره أو السادسة، بيد أن هذه المعاناةَ لم تسجنه داخل أسوارها، ولم تُفقده الحماسةَ المبكرة في طلب العلم. فتقدم نحو هدفه على صغر سنه بجرأة وشَجاعة؛ إذ أقبل على شيخ الكُتّاب في القرية، شاقّاً طريقه إلى حفظ القرآن الكريم والحديث الشريف، وتعلّم التجويد. وسرعان ما انتقل في عام ١٩٣٧م إلى مدينة «ذمار» في سنّه الثامنة. فدخل المدرسة الشمسية التي نال فيها حظّاً من العلم، وتمرّس في تلاوة القرآن وحفظه. كما تعهد الشعر بالحفظ والدرس، وقد أخذ يغزو فؤاده، ويسيطر عليه منذ بلغ الثالثةَ عشرةَ، دون أن يقع في مطبّ الاختيار الفوضويّ؛ إذ اختار من دواوين القدماء ما يلبّي طموحه، ويُرضي عقله، ويُهدّئ مشاعره. ثم انتقل الفتى الضرير المشغوف بالأدب والثقافة والعلم إلى صنعاء عام ١٩٤٩م، فلقي عناية علماء «الجامع الكبير»، وتلقّف على أيديهم بعض العلوم الشرعية وعلوم الفقه. ثم انتسب إلى «دار العلوم»؛ فأتم دراسة تلك العلوم وغيرها. فاستحق الإجازة منها بامتياز. وهي التي أهّلته ليكون مدرّساً فيها للأدب (١٩٥٣ ــ ١٩٦٢م). فازداد خبرة ونضجاً. ثم التحق بالإذاعة مشرفاً على البرامج الثقافية (www.albaradoni.com).

وعلى الرغم من اشتغاله في حقول شتى كالنقد والتأريخ والثقافة، فهو الشاعر الذي توهّج قلمه منذ يَفاعة عمره، ولا سيما أنه جعل حياته ومنابع الأحداث التي تعرّض لها وطنُه مادةَ إبداعه. فكان يُرسلها شكلاً تعبيرياً واضحاً ودقيقاً لا يتردد فيه ولا يتراجع، شكلاً يجذب مشاعر المتلقّي، ويستجيب لتطلّعاته، ولا سيما حين طَرد من بيانه فكرةَ الزمن المشرّد، ليعيش داخل الزمن الذي يَتُوق إلى التحرر والتقدم والارتقاء والأمان. فالبردّوني على قبح ما أصاب وجهَه، وحياتِه الاجتماعية من أزمات ــ ولا سيما في عهد الإمام «أحمد حميد الدين» الذي سجنه ـ لم يكن يستقبل زمنه بالتأوّه والحسرات، وندْب العثرات، وإنما كان يستنهض الواقع والوجدان في إبداعه المتجدد القادر على تجاوز الزمن الْمُوارب، ويولد في النفس الاستجابة تلو الاستجابة، وهو يطالعنا بأسئلة الرؤية والموقف منذ بداية القصيدة، دون أن يقع في حالة المغامرة والمجازفة.

ولا مِراء لدينا أن الشاعر البردّوني اعتمد في بداية حياته نظام القصيدة العمودية المضمّخة بالنزعة الرومانسية المشحونة بعاطفة شديدة جيّاشة؛ عاطفة حزينة تندمج اندماجاً جميلاً بالطبيعة والافتتان بها. ثم راح ينظم قصيدة المقاطع المتنوعةَ القوافي. ثم الشعر الموزون على التفعيلة؛ وكأن هذه الأشكال الفنّيّة تعبّر عن مراحل حياته على نحو كبير، دون أن يكون هناك فاصل حَدّي بين تلك الأشكال. فالشاعر يتجاوز ضفاف الشعر بأشكاله المختلفة، ليغوص في عمق الرؤى خَيالاً وتصويراً، ليفضح الأنماط المزيّفة والمبهرجة. فحين كتب القصيدة العمودية، كانت موهبته المتفرّدة تستيقظ متألقة في تناول موضوعات حياتية مهمة، وتنساب بلُيونة ومرونة، وقد تجاوزت الغَثاثة التي سيطرت على منظومات عدد من الشعراء. لقد ظلّت قصيدته مُنمنمةً إبداعية من جهة، والفكرة والأسلوب والإيقاع.

وأيّاً كان الشكل الفني للشعر لديه، لم يكن مجرد شكل فنّيّ يستعيد الإصغاء إلى الماضي، ويعبث بالوجدان العامّ، وإنما كان شكلاً فنياً يستحضر التاريخ والوجود، ليخلق ذاته في زحمة الكلام العبثيّ. فلا عجب بعد هذا كلّه أن يكون أبرزَ مؤسسي «اتحاد الأدباء والكتّاب اليمنيين»؛ ومن ثمّ انتُخب رئيساً له في مؤتمره الأول.

Archive of SID

www.SID.ir

والبردوني يستحق ذلك وأكثر، وهو الذي نال جوائز عدة مثل «جائزة أبي تمّام» في الموصل عام ١٩٧١م، و«شوقي» في القاهرة (١٩٨١م)، والأمم المتحدة (اليونسكو) (١٩٨٢م)، ومهرجان جَرْش الرابع بالأردن (١٩٨٤م)، والسلطان العويس في الإمارات (١٩٩٣م) (www.albaradoni.com).

وقد عُني الدارسون بدواوينه كلها؛ إذ بلغت اثني عشرَ ديواناً، مثل: من أرض بلقيس، وفي طريق الفجر، ومدينة الغد، ولعيني أم بلقيس، والسفر إلى الأيام الخُضر، ووجوه دخانية في مرايا الليل، وجَوّاب العصور، كما عُنوا بأبحاثه ودراساته التي بلغت ثماني دراسات؛ منها: رحلة الشعر اليمني قديمه وحديثه، والثقافة والثورة، وأشتات (السابق). وكان نتاجه الأدبي والثقافي مدار رسائل علمية للماجستير والدكتوراه، فضلاً عن ترجمة قسم من ذلك الإنتاج إلى لغات عالمية شتّى كالإنجليزية والفرنسية.

أسئلة الوجع الكبرى

كلما ذُكرت اليمن، زحف إلى الذاكرة أسماءُ ترتبط بها؛ أسماءُ سَجّلت ذاتَها في لوح الخلود. فما إن تذكر اليمن حتى يُذكر اسم سبأ، ومأرب، وبلقيس، وصنعاء وعدن، والهمداني، وعلي أحمد باكثير. وحين كانت تُذكر بذلك، فإنها أضحت اليوم تُذكر باسم **عبد الله البَرَدُّوني**.

وليس هذا على البردّوني بكثير؛ فهو يتقدم إلينا من صميم التاريخ اليمني، وقد بثّه لواعج الشوق، ومَنَحه بَيْدراً من دِفء العاطفة في ديوانه الأول لأرض بلقيس (١٩٦١م). ثم أشعل لأرض بلقيس بيارق الصبح، فقايضَ الاحتراق بالاحتراق، وهو يغنّي لعيني أم بلقيس (١٩٧٣م). وكان قد حاك من تاريخ اليمن وثقافتها دررَ الشعر وهو يُبحر في طريق الفجر (١٩٦٨م). فالبردّوني عاشق متعبد لمحراب اليمن وثقافتها الأصيلة التي فجّرها أبناء اليمن حضارة عريقة، وما كان هذا منه إلا سعياً نحو نهضة ثقافية أدبية راقية فكان ديوانه السفر إلى الأيام الخضر (١٩٧٤م).

فالبردّوني ولد في رحم الحضارة المتوهّجة بالأسئلة التي تنتشل الأعصاب المريضة من واقعها المتردّي، وكان كُمون إبداعه أو اختماره يتحرّك في جذور الأصالة، ليشرق في صورة الحب الوطني الرومانسي الأبهى ـ وقد مزج بين الأرض والمرأة ـ ، ولكنه حبّ يتعالى على صدإ النفس، وحالات التعب العابر، وفق ما عبّر عنه في ديوانه مدينة الغد (١٩٧٠)، ووفق ما عبّرتْ عنه قصيدته «مغنّي الغبار». فالشاعر يغنّي لذاته المتألّمة، وقد أنهكها البحث عن الوجود الأفضل. إنها قصيدة تبرز ذاتها بكثرة الأسئلة عن ثمرة الحياة الإنسانية التي تخلق السعادة بدل أن تخلق التّعاسة والشقاء. إنها قصيدة تذكّرنا بمثيلاتها التي تناولت جوهر الوجود الإنساني، والمصير الذي ينتهي إليه. ومن ثم تضع ذاتها في أُتون القلق الوجودي، لتشي بتطلّع فكري يخترق عوالم الآخرين. ومنها:

إلى أين؟ هذا بذاك اشتبه ... ومن أين يا آخر التجربة؟!
إلى أين؟ أضنى الرصيفَ المسيرُ ... وأتعبت الراكبَ المركبهْ
وعن كل وجهٍ ينوب القناع ... وترنو المرايا كمستغربَهْ
إلى أين، من أين؟ يُدْني المَتاه ... بعيداً، ويستبعد المَقْرُبَهْ
سؤالٌ يولّي، سؤالٌ يُطلُّ ... ومن جلدها تهرب الأجوبه
ويظمأ إلى شفتيه النداء ... وتأتي القناني بلا أشربَهْ

(البردّوني، ١٩٧٩م، ص ١٢).

Archive of SID

www.SID.ir

فالأسئلة عند البردوني ليست أسئلة مزيَّفة، ولا تحتاج إلى أجوبة، إنها تشكّل بنية ثقافية، وحالة شعورية مكثّفة تؤدي في نهاية المطاف إلى التعبير عن رؤية جديدة تصوغ الحياة صياغةً أكثر، تعبيراً عن آدميّة الإنسان. فإذا كان الناس يضطلعون بمهمّة بناء المُثُل والقيم النَّهضوية والمتقدّمة، فإنه يطلب في نهاية القصيدة من كل إنسان أن يتمرّد على موته؛ فيقول:

عرفتُ القرارات رغم السطوح — كما تعرف الخنجرَ الأرْنَبَهْ
قتلت مراراً فزد مرّةً — يُحسّوا بأن القتيل انتبه

(السابق)

هكذا جاء البردّوني من ذاكرة الغيب ليملأ الحياة بصوت شعري يُفيض برهافة الذوق، وحسّاسيّة الكلمة الشعرية التي تتمتّع بجاذبيّة خاصة؛ وصورة موحية تعبّر عن عذاب المهمومين بالمصائب، والمُثقَلين بأنّات المتعبين من مآسي الزمن الرديء. إنه يعيش غربة كئيبة في واقع لا يندُّ منه إلا مفرداتُ الألم والخيبة، ولكن لا سبيل له إلا أن يفرج عنها بالصبر على ألم الجرح، وهو يسمع نَزيز الدم؛ فيحوّل صورته البصرية إلى صورة سمعية تضجّ بالحركة والأنين، وآهات المتحسّرين والنادبين والباكين.

إنها لوحة فنية تُصيخ إليها الأذنُ بالسمع أكثر مما تقع عليها العين؛ وكأنها حالة تعويضية عن فَقْده لبصره؛ فيقول معبّراً عن ذلك من قصيدته «فلسفة الجراح»؛ ومنها:

متألّمٌ، ممَّ أنا متألمٌ؟! — حار السؤال وأطرق المستفهمُ
ماذا أُحسُّ؟ وآهُ حزني بعضه — يشكو فأعرفُه، وبعضٌ مُبْهَم
بي ما علمتُ من الأسى الدّامي وبي — من حُرقة الأعمال ما لا أعلمُ
وكأنّ روحي شعلة مجنونة — تطغى فتُضرمني بما تتضرم
وكأنّ قلبي في الضلوع جنازة — أمشي بها وحدي وكلّي مأتم
أبكي فتبتسم الجراح من البكا — فكأنها في كل جارحة فَمُ

(البردّوني، ١٩٨٦م، ص ٢٣)

فهذه الأبيات تتفجّر بالهموم واللوعة التي تَكوي القلب، ويعبّر عنها بطبع مُواتٍ وفطرة نقية... وبخاصّة حين جعل حاسة السمع تعانق حاسة البصر، وهو ينقل إلينا المشهد الجنائزيّ. إنه يُمعن في إيهام المتلقّي، ما يمكننا أن نقول: لو أردتَ التقاط هذه المعاني باليد، لأمكنك هذا؛ وهذه هي صفة الإبداع العظيم. وكل هذا ينبثق من تجربة الشاعر؛ فهو المنكوب بأوجاع متلاطمة، بيدَ أنها لم تستطع أن تُفقده شعريَّته المتألمة التي أرسلها فيضاً من الآهات المعبّرة عن قضيته الكبرى الباحثة عن الوجود الأفضل، والنهوض من تحت الرماد وحطام الذات إلى فضاء اليقظة وتحقيق الحلم المنشود.

فالنص لم يَغرق في غوايات المعاناة القاسية ومفارقاتِها، ولم يعلّق بأهداب الفناء في الحزن، أو يستسلم له على عظمة إحساسنا بذلك كله، وإنما سعى إلى قراءة الحزن في صميم بسمة الأمل الذي يَغمُر قلبه العامر بالحبّ، والحنان الذي يلفّ مجامع حياته. ولهذا كان يطير بأجنحة اللغة إلى آفاقٍ رحبة من العطاء المحمول على جَناح التحرّر من البؤس والخوف، مازجاً بين الألم الظاهر والأمل الباطن.

وحينما راودتْه الأسئلة الموجعة الكبرى حول الطغاة والفاسدين الذين يعيثون في الأرض خراباً ودماراً، ويسرقون جهد الفقراء وتعبهم، كان محمولاً على الأمل بالخلاص من هذا الإرث الظالم. فالليل مهما طال، سيعقبه ضوء النهار.

Archive of SID

www.SID.ir

ومن هنا نفهم فحوى الأسئلة الموجعة التي تمدّنا بأفكار شتّى، وتكشف عن معاناة الفقراء مع الأغنياء المستبدين. فرسالة عبدالله البردّوني رسالة الباحثين عن الحرية والكرامة الإنسانية؛ لهذا يطلّ علينا البردّوني شامخاً قوياً، مشرفاً على الفجر: فجر الحرية، وهو يوجّه أسئلته إلى الطاغية «أحمد حميد الدين» في قصيدته «عتاب ووعيد»؛ ومنها:

لماذا ليَ الجوع والقصفُ لك ... يناشدني الجوع أن أسألكْ
وأغرس حقلي فتَجنيه أذ ... ـت وتُسكر من عرقيَ منجلَكْ
وتقتات جوعي وتدعى النزيه ... وهل أصبح اللص يوماً ملكْ؟
لماذا تسود على شقوتي؟ ... أجب عن سؤالي وإن أخجلكْ
لماذا تدوس حشاي الجريح ... وفيه الحنان الذي دلّلكْ
ولا، لا تقل: أين مني غد؟ ... فلا لم تسمّر يداك الفلَكْ
غداً لن أصفّق لركب الظلام ... سأهتف: يا فجر، ما أجملَكْ!!

(البردّوني، ١٩٨٣م، ص ٨٢)

فالبردّوني لم تفترسه بهرجة السلطان، ولم ينكسر أمام قوته، ولم يَزفِر زفرة العجز والانسحاب إلى الخلف، وإنما جعل مهمته الوطنية صموداً أمام اليَباس، والدفاع عن المسحوقين، وإيقاظ النفوس الظالمة من غيّها الذي سَدِرت فيه، وتنبيهها على أفعالها التي تؤذي خلق الله.

ويشدّد على ذكر المصير الذي سيؤول إليه الجميع. ومن ثم ينتهي إلى هذا النداء الحالم بالأمل: «يا فجرُ»، وكأني به يريد التّخلّص من الأوجاع التي تكوّمتْ عليه في أحضان الزمن المريض الذي ساد فيه الظلم والقهر. فلسان حال الشاعر يُثبت أن المواطنة واحدة في الوطن، فلماذا يحاصر الفقر والجوع أناساً على حين يتولّى قلّةٌ من أناس آخرين حقَّ التّصرف بقوت الآخرين؟! فالشاعر يعبّر عن آلام المسحوقين، وقد أحبطوا بنتيجة ما يَجنَونه حين يذهب إلى أيدي الظَّلمة والمستبدّين.

فالبردّوني يستفزّ الرغبة في الثورة على القهر والظلم، وعلى كل إنسان أن يتحفّز لمصيره الذي يصنعه بيديه؛ إذ لا يجوز أن تصبح البيئة، أيُّ بيئة، مسيطرةً عليه؛ لذلك يخاطب سَجّانه الإمام «أحمد حميد الدين» قائلاً:

وأضعتُ الخطو في شوك الدجى ... والعمى والقيد والجرح رفاقي
في سبيل الفجر ما لاقيتُ في ... رحلة التيه وما سوف ألاقي
سوف يَفنى كلُّ قيد وقوى ... كل سفّاح وعطر الجرح باقي

(البردّوني، ١٩٨٣م، ص ١١٩)

إن المتلقّي يذهل بتجربة البردّوني التي صاغها في قصائده؛ وهي تجربة تؤكد ذاتها مشروعاً ثقافياً وطنياً وقومياً؛ أي: إن تجربته الشعرية تصوغ وعيه الخلّاق في سياقات تنطلق من واقعه، وواقع أمة وثقافتها وتاريخها، لتضيء شعلة المستقبل، ما جعله يقف مدافعاً عن وجودها ورسالتها، ومواجهة أعداء الوحدة العربية بقوة ووعي متوثّب لكل عارض.

وما من أحد يتعرّض لأهداف قصائده ووظائفها الإبداعية، إلا يقف تقديراً وإجلالاً لها بوصفها تعبيراً عن حال الأمّة والأمل بالغد القادم؛ كقصيدته المشهورة التي ألقاها في مهرجان «المربد» بعنوان «أبو تمّام وعروبة اليوم». فالبردّوني تحمل مسؤوليته الكبرى

Archive of SID

www.SID.ir

حين اقتحم شعره المخاطرَ، وعبّر عن القضايا الكبرى، ولاسيما قضية الانتماء إلى الهوية (العروبة) وقضية فلسطين. فأي قضية كانت عنده مصدر مادة إبداعية تستلهم الرغبة في التغيير، والبحث عن الحُلم المنشود الممثَّل بوحدة العرب الكبرى.

فالشاعر يحسّ بغربته المرّة وهو يبحث عن هذه الوحدة؛ فتمتلئ نفسه بفرح لقاء سورية ومصر في (١٩٥٨/٢/٢٢م)؛ فينطلق لسانه بالبوح عن ذلك، وقد لاذ بجوهر الرؤية. ومما قاله آنذاك في قصيدة «زحف العروبة»:

لبّيك يا بن العرب أبدع دربنا — فتنَ الجمال المسكر الخلاّب
فتبرّجت فيه المباهج مثلما — تتبرّج الغادات للعُزّاب
واخضرّت الأشواق فيه والمُنى — كالزهر حول الجدول المنساب
ومضى به زحفُ العروبة والدُّنى — ترنو، وتهتف: عادَ فجر شبابي

(البردّوني، ١٩٨٣م، ص ٢٣)

فالقصيدة تخترق الذاكرة والعواطف بصورها المُوَشَّاة بالظِّلال الفرحة، وقد اختزنت موهبةً خلاقة، وقدرة شعرية فيّاضة بالحديث عن كثير من الهموم الوطنية والقومية.

وحين أخلص الشاعر لمبادئه، حقّقت الصورة جوهر الروح الباحثة عن وحدة الثقافة والتاريخ والجغرافية، وعبّرت عما تمتلكه من مشروع قومي أصيل. فالشاعر يرى أن صنعاء غدت إحدى روابي دمشق، وكأن سورية ومصر في مأرب؛ فيقول:

أتُرى ديار العُرْب كيف تضافرت — فكأنّ صنعا في دمشق روابي
وكأنّ مصر وسوريا في مأربٍ — علم وفي صنعا أعزَّ قباب
لاقى الشقيقُ شقيقَه، فاسألهما — كيف التّلاقي بعد طول غياب؟!

(البردّوني، ١٩٨٣م، ص ٧٨)

ولعل هذه الأبيات وما عرضت له القصيدة ـ على طولها ـ تؤكّد قدرة الشاعر على إذكاء قيم العروبة، وهي قيم تمزج بين الانتماء الوطني والقومي، فلم يجعل القُطريّةَ بديلاً لهويته الكبرى؛ ومما قاله فيها:

دعيني أغرّد فالعروبة روضتي — ورحاب موطنها الكبير رحابي

(السابق)

وكل من يُمعن النظر في هذه القصيدة يتراءى له أن الشاعر يعبّر عن انتمائه العروبي بروح أدبية تمتاز برقّة الحاشية، ولغة الصفاء، وومضة الوفاء... بيد أن هذا الانتماء يصبح قلقاً محيّراً له حين يتعلق الأمر بقضية فلسطين، ولاسيما حين تظهر هشاشة الفعل العربي، وقصوره عن الوصول إلى هدفه في تحرير فلسطين. فالشاعر كان يحفر في أعماق الذات لاستشراف المستقبل، وهو يكتب قصيدة تحريضية لاهبة تنتمي إلى أدب المقاومة، في الوقت الذي ينتمي صاحبها إلى مؤيدي حركات التحرر الوطنية، ويقف مجاهداً بالكلمة إلى جانب المناضلين.

إنه يتبنّى أدب الحياة الذي يجمع أبناء العروبة، ما جعله يصرخ في كل واحد فيهم، منادياً إياه بأخي. ومما قاله في قصيدة «يوم الميعاد»:

يا أخي، يابن الفدا، فيمَ التمادي — وفلسطين تنادي وتنادي؟!
ضجّت المعركة الحمرا... فقم — نلتهب، فالنور من نار الجهاد

Archive of SID

www.SID.ir

ودعا داعي الفدا فلنحترق — في الوغى أو يحترق فيها الأعادي
يا أخي، يابن فلسطين التي — لم تزل تدعوك من خلف الحداد
عُدْ إليها، لا تقل: لم يقترب — يومُ عَوْدِي؛ قل أنا يوم المعاد

(البردّوني، ١٩٨٣م، ص ١٠٤)

وتتسلل نبرة الشاعر البردّوني إلى الروح، وتصهر في ذاتها كلّ العوالم والملامح البنائية، في لغة تتحفّز للطيران إلى آفاق رحبة تقربها من لغة الحداثة، وإن كان الشكل تقليدياً، فضلاً عن أنه يملك رؤية شعرية تعبّر عن الوجدان الجمعي للأمة، وهو ما يعرف بالحداثة حداثة الرؤية.

وكان السيّاب قد سبقه إلى هذا، وتأثر به، كما يبدو لي. فالصورة تنقل المتلقّي إلى عالم بديع، وهي تجلب الغياب إلى حضور مثير يتراقص على إيقاع يملك علينا أنفاسنا، وقد حقق مقولة من قال: إن الوزن ميزان الوجود؛ وقد استقطب بتفعيلاته مشاعرنا، مُحيلاً الشكل التقليدي إلى شكل فنّي حداثيّ يخترق المألوف، ويتجاوزه بإيقاعاته وصوره ولغته، وإن حافظ على نظام القصيدة العمودية. ويكفي أن نسوق هذه الأبيات من إحدى قصائده دليلاً على ما نذهب إليه؛ وفيها يقول:

مثلما يبتدئ البيت المقفّى — رحلة غيميّة تبدو وتخفَى
مثلما يلمس منقار السنى — سَحَراً أرعش عينيه وأغفى
هكذا أحسو يديك إصبعاً — إصبعاً أطمع لو جاوزن ألفا
مثل عنقودين أعيا المجتني — أيُّ حباتهما أحلى وأصفى؟!
هذه أملي، وأطري أختها — تلك أشهى، هذه للقلب أشفى

(البردّوني، ١٩٨٣م، ص ٢٢٩)

فالشاعر يتكئ على الحواس، فيجعلها وسيلة للصورة الشعرية، ويركز فيها على حاسة اللمس التي يكثّف من خلالها موهبتَه الخلاّقة، ليعبّر بها عن مخزونه العاطفي، ويعلن للملإ قدرته على مجاراة المبصرين، قائلاً لهم: إنه قادر على أن يأتي بما لم يأتوا به.

فالقطعة السابقة وأمثالها ـ مما تقدم ـ تُطلق للرؤية الشعرية الحريةَ في طَرق موضوعات قد تكون من موضوعات المبصرين دون غيرهم. فأراد تناولَها مُسبغاً عليها لبوسه الشفيف الحاملَ لتجربته ومعاناته، طارحاً مجموعةً من الأسئلة على الناس عامة، والنقاد خاصة. وهي أسئلة تتعلق بالصورة البصرية، وقدرة المبدعين العُميان على الإتيان بها. فالبردّوني يترك عُقَد الناس وراء ظهره، ويسير على هدي عبقريته فيوفق بين المخيلة والرؤية ليقدم لنا صوره البصرية واللمسية بقدرة تخييلية بديعة.

ومن ثم فالبردّوني لم يمرّ في حياتنا الإبداعية والثقافية مرَّ الكرام. كان يعتلي صهوة الكلمات، وجَناح الخيال، ويشكّل إبداعه وفق أساليبَ جذابة، كلها تُثيرك وتأسرك. فمن يأخذ من الحرف سكونَه، فلن يصل إلى مبتغاه؛ أما من يُمعن النظر فيه محدّقاً بهيئته وسياقاتها، فإنه يدرك سرَّ وجود كل حرف إلى جانب أخيه؛ ثم كل كلمة وجملة. وقد احتضنت أغنية المجد والخلود بتوزيع تناغمي ينسجم فيه الشكل مع المضمون، ويلابسه ملابسةً تفاجئك في أسرار دلالتها وهيئتها. ومن ثمّ علينا مواجهة كل نص بذاته دون أن يكون لنا موقفٌ مسبق منه؛ وعلينا أن نصغي إلى موسيقاه التي تبعث على الإدهاش في وقت يتضمن رسائل شتّى فرحاً وحزناً، سعادة وألماً، حبّاً وكرهاً، رضاً وسخطاً... فمن تعهد النص بهذه الرؤية، أفضى به موقفُ التلقي إلى الاستقرار عند جماليات تُرسي في النفس لذّةً عالية من الإمتاع، لا يمكن أن يستمتع بها لو كان على غير تلك الحال... ولا بأس علينا أن نعيد إلى ذاكرة

Archive of SID

www.SID.ir

المتلقّي تجربة الشاعر مع اللغة العربية والتعامل معها، وهو يصوغ إبداعه منها، مفتخراً بها افتخارَه بانتمائه إلى عروبته ووطنه. ومما قاله:

لأني رضيعُ بيانٍ وَصَرْفٍ ... أجوع لحرفٍ، وأقتات حَرفْ
لأني وُلدت بباب النّحاة ... أظلّ أواصل هرفاً بهرف
أنوء بوجهٍ كأخبار (كان) ... بجنبين من حرف جرٍّ وظَرْف
أعندي لعينيك يا موطني ... سوى الحرف أعطيه سكباً وغرف
أتسألني كيف أعطيك شعراً ... وأنت تؤمل دُوراً وجُرْف؟!
أُفصّل للياء وجهاً بهيجاً ... وللميم جيداً وللنون طَرْف
أصوغ قوامك من كل حُسْن ... وأكسوك ضوءاً ولوناً وعُرْف

(البردّوني، ١٩٨٨م، ص ٧)

فهذه الأبيات تطير بعنصر النشوة إلى أبعد مدى، وقد امتزج لديه الانتماء إلى الوطن بحسّ الانتماء إلى اللغة والإبداع. لم يشأ لِحنَّاء الحرف المخضَّب بأريج المجد إلا أن يكون وساطةَ إبداعه الذي يزهو به، وهو الحرف الذي أقام بوساطته عالم الوجود الزاهي، وأراد أن يرسيها رسالةً يبعث بها إلى الأجيال من بعده، وقد استهام بمحبة الوطن التي ازدانت بالبهاء والحسن.

تلك كانت رحلة موجزة مع الشاعر المبدع عبد الله البردّوني، وأسئلته الكاشفة عن لغة الإبداع والحياة. إنها أسئلة معجونة بالبحث عن جوهر الحقيقة وفهم أسرار الأحداث التي اعترضته. والله من وراء القصد.

المصادر والمراجع

١ـ البردّوني، عبدالله. (١٩٨٨م). ترجمة رملية.. لأعراس الغبار. (ط ١). دمشق: مكتبة الكاتب العربي.

٢ـ ـــــــــــــــ. (١٩٨٦م). ديوان. (ط ١). بيروت: دار العودة.

٣ـ ـــــــــــــــ. (١٩٧٩م). مدينة الغد. بيروت: دار العودة.

٤ـ www.albaradoni.com

Archive of SID

www.SID.ir